

صارت الفتوى فوضى

في عهد سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز كان طلبة العلم يتهيبون أن يفتوا بفتوى تخالف فتوى سماحته، فقد كان مرجعية كبرى ورمزاً علمياً يُحسب حسابه، بل كان إماماً للعالم الإسلامي بأسره لطول رحلته العلمية وتقيدته بالكتاب والسنة واليوم صارت الفتوى فوضى، فأحد المشايخ يفتي بجواز حل السحر بالسحر، وشيخ آخر يفتي بعده بليلة في التلفزيون السعودي بتحريم ذلك، وفتوى أخرى بجواز إرضاع الكبير للحاجة، وفتوى بعدها بليالي تقول: إنها فتوى عين لا عموم لها ولا يمكن العمل بها، وصار الناس في أمر مريج أمام تناقض الفتيا واختلاف المفتين، فما هو الحل أمام هذه المعضلة وكيف نوجه الناس للأخذ بالفتوى السديدة الراشدة خاصة في القضايا الكبرى العامة التي تشغل الناس.

وقد كان علماء السلف يخافون من الفتيا ويحيل بعضهم على بعض ورعاً وتقوى، أما اليوم ومع انتشار الفضائيات فصار الكثير منهم يحرص على الفتيا ويطلبها ويلح عليها وأنا أعجب من بعض طلبة العلم وقد كفاهم الله عواقب الإفتاء بإسنادها إلى غيرهم ولكنهم أصروا إلا الإدلاء بأرائهم، فمثلاً أخونا الشيخ عادل الكلباني والد الجميع حافظ لكتاب الله وصوته جميل وهو إمام وخطيب للجامع ولكنه أصر أن يشارك في الفتيا ولو لم يسأله أحد، فأفتى بجواز سماع الغناء بشروط وبضوابط، ثم أخبرنا أنه لا يستمع الغناء ورعاً وتقوى، فما السبب إذاً في فتواه هذه؟ هل أراد أن يوسع على الأمة في مسألة الغناء يوم رآها أعرضت عن الله والغناء والطرب وهي غارقة إلى أذنيها أصلاً بالسهرات الضائعة والحفلات اللاهية حتى أصبح الشباب يرقصون مع صوت المزمار ويتمايلون مع نغمات الفنانين، فما مقصد الشيخ عادل الكلباني والد الجميع وقد أسندت الفتيا عندنا إلى لجنة دائمة فسقط عنا الإثم بالسكوت على الفتيا؟

ولماذا يسرع الأئمة والخطباء وحفظة القرآن إلى الإفتاء، ومنصب الإفتاء لا يحصل لطالب العلم إلا بعد اطلاع واسع وفهم عميق بدلالة الكتاب والسنة، وعلم بالواقع، ومعرفة بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبني، مع تقوى وورع وفقه نفس، ولكن أئمة المساجد والخطباء اختصروا المسألة وقفروا إلى وسائل الإعلام يفتون الناس طلباً للجاه والله المطلع على المقاصد، يا طلبة العلم، أريحوا العامة وارحموا الناس من هذه الفوضى في الإفتاء، واتركوا الأمور لمن أسندت إليه ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.



العالم الثالث في غيبوبة

نحن في العالم الثالث نهتم برفع العمارات ومد الجسور ونصب الكباري وإنشاء النوافير وهذا شيء جميل ولكن الأهم من ذلك هو بناء الإنسان في العالم الثالث وتأهيله وتدريبه وتمرينه ليكون عنده روح نظامية وذاتة جمالية ولياقة أخلاقية واحترام للنظام ولطف في المعاملة ورقة في المشاعر، وكلما حدثنا قومنا عن العالم الأول ورقيه المادي وذوقه الراقي ونجاحه في أمور دنياه وترتيبه لشؤون حياته صاح بنا بعض إخواننا وضجوا وصجوا، وقالوا لنا: اتقوا الله ولا تتقضوا عرى الإسلام عروة عروة وكأن وضعهم السيئ من الجلافة والعجرفة والقسوة والفظاظة والغلظة هو ما يمثل الإسلام الدين العظيم، والحقيقة أن الإسلام رسالة مشرفة ومنهج قويم لكنه شيءٌ وواقعنا شيءٌ آخر نحن نفشل كثيراً في تطبيق تعاليم الإسلام وأخلاقياته السامية ومثله العليا، فإذا انتقدنا أحد تترسنا بالإسلام واحتمينا به أمام النقد والتقويم، فهل في الإسلام أيها العالم الثالث النائم، إفساد البيئة والتعدي على النظام ومخالفة الذوق العام وإهمال النظافة والدروشة ورفع الصوت في الأسواق والعبوس والتفاخر بالأنساب والطعن في الأحساب والعصبية الجاهلية والتمييز العنصري.

كلما ذهبنا، إلى الشرق والغرب وخرجنا من العالم الثالث إلى العالم الأول وجدنا الفرق الشاسع والبون الكبير، وأشهد بالله إنهم قوم سيروا حياتهم وصناعتهم وإنتاجهم بدرجة عالية من الدقة والاحتراف والالتقان مع علمي بانحرافهم العقدي وإفلاسهم في عالم الروح وتدهور صلتهم بالله العظيم لكن الإيجابيات التي حققوها في عالم الدنيا جديرٌ أن نستفيد منها، بالله عليكم انظروا إلى وضعنا في العالم الثالث لتجد أن هذا العالم صار عبئاً على العالم الثاني، فالعالم الثالث فيه يجتمع الفقر والجهل والمرض والأمية والمجاعة والبطالة والاستبداد والقتل والاعتقالات والتفجيرات والانقلابات وإن كنت في شك من

كلامي هذا فطالع نشرات الأخبار بتركيز وانظر إلى الصحف والمجلات باهتمام، بل إن العالم الأول يصنع لنا الإنترنت فيحوله سفهاؤنا إلى مزبلة من السباب والشتم والتهديد والوعيد والغيبة والنميمة ثم إن العالم الثالث عالم استهلاكي فوضوي غير منتج ولا منظم ولا مرتب وهو يحتاج إلى مئة عام حتى يصل إلى العالم الثاني فضلاً عن العالم الأول حتى استخدامنا لمنتجات العالم الأول ليست سليمة على ما يرام كالسيارة والطيارة والثلاجة والبرادة والسخانة والفرامة والحراثة والحصادة والحفارة وليتنا استعملناها استعمالاً لاثقاً وقلنا لهم: شكراً لكننا أخذنا نهجوهم ونتهددهم وندعو عليهم في القنوات ونلعنهم بعد كل صلاة ولم نفرق بين العدو المحتل والمخالف المسالم ومَن بيننا وبينه مصالح مشتركة، بل بعضنا جعلهم في سلة واحدة ولعنهم جميعاً وتوعدهم بالغزو المسلح في عقودهم مع العلم أنهم هم أهل النووي والقنبلة الذرية وحاملات الطائرات والصواريخ والقاذفات والراجمات والمدفعية والكلاشنكوف.

أما نحن فاكتفينا بالعرضة والدبكة وإخراج التراث القديم البائس من الخناجر وجفان العود وصحاف الخشب والحبال البالية والقرب الممزقة والحجارة المهشمة والأبواب المخلعة وبيوت الطين المنهارة وقلنا للعالم: هذا تراثنا العظيم الذي ورثناه من الآباء والأجداد مع العلم أن العالم أصبح ينزل المركبات الفضائية على عطارد والمريخ وما هي ميزة تراثنا الشعبي البائس على تراث أجداد اليابان والكوريين والإنجليز، إن العالم الثالث مازال في غرفة العناية المركزة ويحتاج إلى منشطات وأدوية حتى يفيق من الغيبوبة ويصحو من النوم، ولا يفرك ما تسمع من العنتريات وبيانات التمدن والتحضر وأنا محسودون وأن العالم مدهوش منا ومذهول من تقدمنا، فهذا كله كلام فارغ والعالم إلى الآن يرى أن العالم الثالث عبئاً ثقيلاً عليه يصعب التعامل معه.



ضبط الفتيا مهمة الحاكم المسلم

الشريعة الإسلامية ليست نهياً مشاعاً ولا حراجاً مفتوحاً لكل من هبَّ ودبَّ، إنها رسالة ربانية يحملها الأتقياء العقلاء العلماء، ويمكن للإنسان أن يتاجر في كلِّ مباحٍ إلا الدين؛ فإنه يحرمُّ المتاجرة بشرع ربِّ العالمين، وقد سبق لخلفاء الإسلام أن وقفوا بحزم أمام من أراد أن يخوض في الشريعة دون أهليَّة، وأوقفوه عند حدِّه، وأخذوا على يده، وتحديد الفتيا هنا في السعودية لأهل الاختصاص من العلماء قرارٌ موفق ومسدد؛ لأنَّ الساحة بليت بطلابٍ وأساتذة وأئمة وخطباء خلطوا بين الدعوة والفتيا، وبينهما بونٌ شاسع؛ فالدعوة تبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ وهداية للناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

ومن يفهم آيةً من المسلمين وجب عليه أن يبلغها غيره، قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»، لكنَّ الفتيا شيء آخر، إنها رسوخ للعلم، وفهم للنص، وإطلاع على الواقع، وعلم بمقاصد الشريعة مع عقل راجح، وتقوى وورع. وقد أصبح الناس في أمرٍ مريج قبل أن يبدأ بضبط الفتيا؛ فكثير يلبس بشته، ويتصدَّر القنوات، فيفتي في كلِّ سؤال، ويجيب عن كلِّ إشكال، ومواقع الإنترنت صارت نوادي ليلية بالمجان لمن أراد فتوى سهلة ميسرة في المزاد العلني.

وليس عند المسلمين - كما قال خادم الحرمين الشريفين - أعزُّ من دينهم دين الإسلام، فهو أعزُّ من النفس والولد والوطن والمال، وبما أن في السعودية مهبط الوحي ومهد الرسالة ومنطلق النور وأرض الحرمين وجب علينا حاكماً ومحكومين أن نجعل رسالة الإسلام وشريعة الله أعظم ما نفاخر به، ونباهي به الأمم، ونستमित في الذبِّ عنها، وحماية حياضها، والدِّفاع عن حرمتها وقداستها بالقول والفعل وبالنفس والنفيس.

ونأمل من دول الإسلام كافة أن تتخذ موقفاً إيجابياً من شريعة الله، وتحفظها وتصورها، وتمنع المتحرّصين والمتعجلين من الخوض فيها، وتسد أمور الفتيا لأهل الاختصاص من العلماء الراسخين؛ فليس كل من وعظ أفتى، وليس كل من حبر خطبة أو أعد محاضرة أو ألقى درساً جديراً أن يفتي الناس في أمور دينهم، لماذا نتسرع في الفتيا ونتبرع بالإجابة عن الأسئلة بالتخمين والظن والوهم؟ وقد ندّد الله بهذا المسلك المشين، وهو الافتراء على كتابه وسنة رسوله ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، حرام علينا أن نخدع الناس في أمر دينهم، ونغرر بهم، ونقدّم لهم إجابات خاطئة، وحرام علينا أن نتنافس في التصدّر وطلب المنزلة عند الناس ونسيان رقابة ربّ الناس.

قد تخمّن في السياسة، فتصيب وتخطئ، وقد تتكلم في الفكر بالصحيح والغلط، وقد تلمّ في الثقافة العامة بوجهات النظر، لكن الشريعة المقدّسة المطهّرة شيء آخر؛ إنها رسالة أتى بها الرسول ﷺ عن جبريل الأمين عن ربّ العالمين: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

إخواني طلبية العلم والدعاة والخطباء والوعاظ والمتقنين والمفكرين، قدسوا الشريعة المحمدية، احترموا الرسالة الخالدة، وقرّوا تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ لا يُفت إلا عالم، ولا يُجب إلا فقيه، ولا يتصدّر إلا مقتدر، ويا أيتها الأمة الإسلامية، لا تأخذوا دينكم من أي متكلم، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وأهل الذكر هم العلماء المؤهلون للفتيا.

وكما أننا ندعو لاحترام التخصص الشرعي، فإننا ندعو لاحترام التخصصات كافة، فلا يجوز للطبيب أن يكون مهندساً بلا علم ولا خبرة، ولا يجوز للخياط أن يأخذ مهنة النجار بلا مِران ولا دُرْبَة، فقد علم كل أناس مشربهم، وأعطوا القوس باريها، وليت رابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي واتحاد



علماء المسلمين والأزهر الشريف ومجالس الإفتاء في أوروبا وآسيا أن تحذو حذو
السعودية في حفظ الفتيا ومنع الخوض في أمور الشريعة والتلاعب بالدين وتضليل
المسلمين وإشاعة الفوضى وتضارب الأقوال والأجوبة على عوام الناس.



قتلتنا الجزئيات

نحن قوم شغلنا الجزئيات عن الكليات والفروع عن الأصول والقالب عن المضمون والصوت والصورة عن السمات والسير، تطاحنًا فيما بيننا على مسائل خلافية وتركنا الدعوة إلى أصول الملة من تصحيح التوحيد وتقوية الإيمان وتهذيب الأخلاق وإقامة العدل ونشر السلام والدعوة بالحكمة وإشاعة الأخوة وعمارة الأرض بالزراعة والصناعة والاكتشاف والبناء، العلماء مشغولون بمسألة الغناء وإرضاع الكبير وكشف وجه المرأة والاختلاط وقيادة المرأة للسيارة، وفي العالم الإسلامي ملايين يجهلون التوحيد وإخلاص العبودية لله، فهم يطوفون بالأضرحة ويلوذون بالقبور ويلقون التمايم وينوحون عند مقابر الأولياء، والشباب تعصف بهم موجة الغلو والمخدرات والتحلل من الدين، الناس مشغولون بالحياة اختراعاً وبناءً وتعميراً، ونحن مشغولون بالجدل والخلاف المذموم والقييل والقال، انهمكنا في مسائل طبخت واحترقت من أكثر من ألف عام ومازلنا نعيد الكلام ونكرر العبارات ونجتّر الخلاف، تشاغلنا بالتقليد والمحاكاة على حساب التجديد، ورضينا بحفظ كلام الأئمة على حساب الاستنباط والفهم من الكتاب والسنة.

صنّع الغرب الراديو والتلفزيون والميكرفون وآلة التصوير فتقاتلنا نحن في حكم استعمالها، قدّم الغرب الثلاجة والبرادة والسخّانة والفرّامة والطيارّة والسيّارة والحفّارة والحراثة وكان المفروض أن نقدم لهم الإيمان والأخلاق والسكينة والرحمة والسلام والهداية لكننا تشاغلنا بسبهم وتهديدهم والدعاء عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور وقاصمة الظهر، أرسلوا لنا أطباء ومهندسين ومخترعين، وذهب بعض شبابنا إليهم مفجرين ومدمرين، كان أسلافنا يفتحون الشرق والغرب بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مع العدل والمساواة والحرية والسلام، ونحن قعدنا في أماكننا نلوم أنفسنا ونتدب حظنا ونتعنى بماضينا وتناحر فيما بيننا على جزئيات المسائل ومفردات من السنن، كل سنة نخرج للعالم بحملة هائلة من الضجيج والصجيج، والصياح والنواح والصراخ في

مسألة قيادة المرأة للسيارة وسفرها إلى مكة بالطائرة بلا محرم واستخدامها للعدسات اللاصقة وحكم الموسيقى ومشاركة الدعاة في بعض القنوات الفضائية.

بالله هل انشغل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح ويوسف بن تاشفين وعلماء الأمة من المجديدين والمصلحين بالخلافيات والردود على بعض والجدل السقيم العقيم أم سارت كتائبهم وأشرفت شمسهم بالفتح المبين والنصر المكين والدعوة إلى توحيد رب العالمين، أسف وأنا أطلع صحفنا ومواقع النت وأشاهد قنواتنا، وإذا الردود الساخنة والأجوبة الطاحنة على المخالف في مسائل يسع فيها الخلاف، لماذا لا تعطى كل مسألة حجمها؟ ولماذا لا نتشغل بكبار المسائل وأصول الملة وعظائم الأمور؟ لماذا لا ترتفع هممنا إلى القضايا المصيرية ونكون على قدر المسؤولية؛ ليصدق فينا قول الباري: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها الأجسام

لقد صارت الفتوى عندنا فوضى، أصبح كل من حفظ شيئاً من القرآن مع حديثين من السنة ولبس بشتاً وأعفى لحيته يفتي الأمة تبرعاً من عنده وحباً للتصدر، شباب في القنوات الفضائية يسألون في مسائل لوعرضت على عمر ابن الخطاب لجمع لها أهل بدر، فيجيب هؤلاء بلا تأمل ولا روية، والكتاب عندنا والمتقفون يصفقون لمن يحلل لهم ويسهل ويفتح أبواب المباح دون ضوابط شرعية، فكلمنا أفتيت بالجواز وقتل للناس: خذوا راحتكم، وما عليكم، وماله؟ والأمر سهل، وسع صدرك، والمسألة بسيطة، وافعل ولا حرج، والموضوع هي، فأنت النجم اللامع، والقمر الساطع، والفقير الذكي والملم بأحوال العصر، ولو كانت الفتوى غلطاً والجواب شططاً، أيها الأخوة، اليهود زادوا مجرد نقطة، فوقعوا في ورطة، وسقطوا سقطة، وارتكبوا غلطة، قيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، فقالوا: حنطة.



الحوار عندنا لم يُفعل

شاركت كغيري في حضور بعض لقاءات مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني وقد استبشرنا كلنا خيراً بهذه اللقاءات وظننا أنها ستترجم إلى أرض الواقع وتنتقل من خطابات شفوية وتوصيات عامة إلى عمل ميداني على مذهب: (الميدان يا حميدان) ولكن مرت سنوات ولا تزال هذه اللقاءات تنتهي بتوصيات شفوية أشبه بتوصيات مجلس التعاون والجامعة العربية.

أتلّمس أثر الحوار الوطني في المجالس والمدارس والجامعات والمساجد والأندية والأحياء فلا أجد أثراً، لقد شبع الناس من الكلام، يريدون أعمالاً لا أقوالاً، وإصلاحات لا تصريحات، لماذا لا يدخل الحوار الوطني مادة الحوار في المدارس والجامعات؟ لماذا لا يُنشأ معهد لهذا الخصوص؟ لماذا لا يعرض الحوار في خطب الجمعة والدروس العامة؟ لماذا لم يقم الإعلام بحملة قوية لتفهم الناس وتثقيفهم بأساليب الحوار؟ لماذا لم تُطبع كتب في هذا الباب؟ لماذا لم تُنشأ نوادٍ في المدن والقرى والأرياف تعلم الناس فن الحوار؟ نحن في الحوار ما زلنا في أولى ابتدائي نحتاج إلى سنوات طويلة لتعلم هذا الفن والعمل به وممارسته خلقاً وثقافة، نحن ما زلنا نتفاهم بالعصا والمشعب والعجاء والهراوة والملاكمة والعض والنهش والرفس والشتم والسب واستعداد السلطة والجمهور، سنوات على الحوار الوطني ولم ألاحظ أي تغيير في تعاملنا.

فبعض الأساتذة يُضربون من الطلاب ضرب غرائب الإبل، وشاب رفس أمه حتى ماتت، وفتى عنيد مريد قتل أباه بالمسدس، وزوج شرير فاجر كسر ضلعين لزوجته وشج رأسها، وشيخ قبيلة يرفض آراء كل القبيلة ويجبرهم على رأيه فحسب، ومدير مدرسة حوّل المدرسة إلى ثكنة عسكرية وكأنه ضابط من ضباط الكومندوز، وخطيب جمعة يهدد ويتوعد العصاة ويتربص بهم الدوائر، وكاتب يجلد الناجحين بقلمه كل يوم، وصياح وصراخ وزعيق ونعيق ونهيق في النوادي

والمجالس، نحن لا نحتاج إلى مزيد من المؤتمرات واللقاءات والتوصيات، نحن نريد عملاً مثمراً وأثراً ملموساً نعيشه ونلمسه ونحسُّه؛ ليغيّر من حياتنا الصاخبة الهائجة المائجة إلى حياة حوار وأمن وسكينة وحب وسلام.

إن الشريعة الإسلامية مليئة بنصوص الحوار والمجادلة والتي هي أحسن والرفق واللين ولكنها تبقى نصوصاً محفوظة لا نتفع بها ما لم نفعّلها في حياتنا، أمل أن نسحب من قاموس حياتنا كلمات التهديد والوعيد والتنديد، والعذاب الشديد، والبطش الأكيد لمن خالفنا، نحن نحمل غضبات مضرية جوفاء ولكننا لم نقتل ذباباً، نحن في حاجة إلى صوت هادئ ودليل مقنع وحجة واضحة وحوار بناءً، فقد تعبنا من النهر والزجر والتوبيخ والتعنيف الذي حرّمه الله ورسوله ﷺ، إن العظماء قوتهم في عقولهم وحجتهم في أفكارهم وإنجازاتهم في أعمالهم، وإن الأغبياء والحمقى أدلتهم في عضلاتهم، وبراهينهم في صراخهم، وآثارهم لا تتجاوز حناجرهم، قال الله تعالى في البداء الفاشلين الساقطين الذين عطلوا التفكير، وألغوا العقل وردوا الحق وصرخوا في وجه البيّنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَّسْنَدَةٌ﴾، الأمم الناجحة يقلُّ كلامها، وتسمو أخلاقها، ويهدأ غضبها، ويتلاشى صراخها، والأمم الفاشلة كالطبل الأجوف صوت ولا أثر، وكالمزمار الأخرق نغمة بلا صدى، وكالبالون المنفوخ بهرج بلا قيمة.



لمن أراد دخول جامعة الحياة

الحياة معرفة الواجب والقيام به، وما عداها غشاء، الحياة في سبيل الله بناء وفتح وانتصار، والحياة سوف تكون أكثر جمالاً بلا أشرار ولا فاشلين، لكن كتب على الدنيا النقص والفناء، سهل على الإنسان أن يعيش لكن الصعب أن يعيش كما يجب، الحياة كتاب من فهم نصوصه عاش سعيداً لكن الأغبياء لا يقرؤون أصلاً، الحياة خلية تستقبل الأحياء وتلفظ الأموات، الحياة صراع لا يفوز بخيراتها إلا الشجعان، أما الجبناء فحظهم الحرمان، الحياة فرصة واحدة لا تتكرر إن حرصت عليها فزت وإن فاتت فمت أسفاً، الحياة ليست ملكاً لأحد إلا للواحد الأحد ولن يحجبك عن المجد أحد، إذا أردت فصمم وتقدم ولا تحجم فتقدم، لن يتصدق أحد عليك بالنجاح فالكل هلوع منوع جزوع، فاعتمد على نفسك وتوكل على الله، إذا رسبت في مدرسة الحياة فلن يقبلك أحد ولو نزلت الملائكة تشفع لك، وإذا نجحت في جامعة الحياة انحنى لك العظماء احتراماً وتقديراً، إذا كانت الحياة مائدة وكأساً وسريراً وحريراً فالبهائم أسعد بها، ولكن الحياة عقل يفكر، ويد تعمّر، وقلم يحبر، وثناء معطر، وعلم مسطر.

في الحياة لوحة مكتوب فيها: (خطر ممنوع الاقتراب) يقرؤها الجبناء والكسالى فيبتعدون، ولكن الشجعان والأذكياء يخلعون اللوحة ويقتمحون، الحياة ليست شهادات فخريّة ولا مجداً حصل بالوراثة، وإنما هي زخات من عرق التضحية، وقطرات من دم الفداء، وآهات من أتين الكادحين، إذا خضت بحر الحياة ورُميت بالطوب من الحساد فمعناه أنك وصلت بلاط المجد وأصبحت مدفعية الشرف والفخر تطلق إحدى وعشرين طلقة احتفاء بقدمك، في الحياة لو جلس أبوك على الجوزاء وأنت صفر لما أجلسك الناس إلا في المؤخرة، الحياة ترحب بالعجوز المناضلة وترفض الشاب الخامل، الحياة لا تقيس الناس بالأمتار، ولا تزن لحومهم بالأرطال، وإنما تُقايِس بين العقول وتفاضل بين الهمم، الحياة

سوق كبيرة فيها عرض وطلب بقدر ما تعطي تأخذ، في الحياة لن تشتري الذهب بالخشب، ولن تحصل على وجبة غداء مجاناً.

الحياة سباق ولن يسبق الحمار الفرس أبداً، إذا نظرت للحياة بروح جميلة صارت أمامك حدائق غناء من الخمائيل والجدائل والبلايل، وإذا نظرت لها بروح بائسة تمثلت لك أطلالاً بالية من الصروح الخاوية والأجدات الزائلة، الحياة السعيدة ضمير حي، وروح طاهرة، وجسم سليم، ونفس فتوة، والحياة التعيسة لهث وراء المادة، وفكر خواء من المعرفة، ونفس متدنسة بالآثام، وجسد مرتع للوباء، حرر نفسك من طاغوت المال وصنم الأناية وشيطان الحسد، كن في الحياة نخلة طلعها هضيم، ولا تكن حنظلة ثمرها مر سقيم عقيم، فالنخل باسقات لها طلع نضيد، والحنظل خاويات لها ثمر سام يقطع الوريد، كن في الحياة كالنحلة تطوف على الزهور ترشف الرحيق ثم تضع عسلًا مصفًى، ولا تكن ذباباً يقع على الأذى، ويحمل القذى، ويلوث الجروح، ويدنس الأجسام.



وصفة بمليار دولار

قال حكيم: نصحني الناصحون فلم أجد أنصح من الشيب، ووعظني الوعاظ فلم أجد أوعظ من الدهر، واستضأت بنور الشمس وضوء القمر فلم أجد أحسن ضياء من الطاعة، واستوحشتُ من الظلام فلم أجد أوحش من الظلم، وذقتُ السم الزعاف والدواء المر فلم أجد أمرّ من الفقر، وعاداني الرجال فلم أجد أعدى من نفسي التي بين جنبي، ونازلت الأبطال وصارعتُ الأقران فلم أجد أشرس من المرأة السوء، وأكلت أذ الطعام وأحلى الشراب فلم أجد أحسن من العافية، ورميت بالسهام وجرحت بالسيوف فلم أجد أشد ألماً من الكلام الجارح، وذقتُ العزلة وقاسيت الوحشة فلم أجد أقسى من قرين السوء، ودخلت السجون وقيدت في الأغلال فلم يهدّني كآلهم والحزن، وشيدت القصور وبنيت الدور فلم أجد كالثناء الحسن.

وتصدقت بالكنوز وأنفقت الذخائر فلم أجد صدقة كهداية ضال، ولبست مطارف الخز ووشي الحرير وناعم الديباج فلم ألبس أجمل من لباس الصلاح، وجمعتُ الأموال وحصلتُ الخزائن فلم أجد كالقناعة كنزاً، ودافعت عن نفسي بلا عوان، واستعنت بالإخوان فلم أجد ناصرأ كالجود، وخذلني القريب وحاربني البعيد فلم أجد أشد من شماتة العدو، وتتعمت بالحدائق الغناء والبساتين الفيحاء فلم أجد أجمل من مجالسة العلماء، وصاحبتُ الأصدقاء وأنست بالرفقاء فلم أجد جليساً خيراً من كتاب، وخذلني قومي وخاب ظني في أصحابي فلم أجد من نصرني مثل مالي، وتذكرت من أحسن إليّ وأنعم علي فلم أجد منعماً إلا الله، ومرت بي المكاره ووقعت في الكربات فلم أجد أشد كربة وأكثر غربة من القبر، وهبت الملوك وخفت السلاطين فلم أجد أهيب ولا أرهب من الموت.

وبحثت عن السرور وما يجلب راحة القلب فما وجدتُ كفعل المعروف، ورأيت صور الشناعة ووجوه البشاعة فما رأيت أقيح من الكذب، وذقت الأسقام وعانيت الآلام فلم أجد أكثر داء ولا أخبث زاداً من البخل، والتمست النجاة وفتشت عن السلامة فلم أجد أنجى ولا أسلم من الصدق، وجربت كل دواء لطرده لهم وبحثت عن كل وصفة لإزالة الغم فما وجدتُ هنا ولا أمراً من ذكر الله.



متى يكون النجاح خطيئة؟

إذا عاشت الشعوب الجهل والتخلف أصيبت بداء التعصب المذهبي والتحجر الفكري والاستبداد السياسي، فلا تعرف إلا ما وُلدت عليه وورثته من الآباء والأجداد ولو خالف الحق، قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾، حينها يُعدُّ الرأي المخالف لهذه الشعوب ولو كان صحيحاً منكرًا ومردوداً ويُهاجم كل مبدع وناجح، يقول فولتير كما في كتاب (متعة الحديث) للداود: النجاح خطيئة يرتكبها بعض الناس بحسن نية لكن زملاءه لا يغفرونها له، وأقول: كم من كرامة لعظيم مرَّغها الجهال بالتراب وانظر لما واجهه الأنبياء ﷺ من هجوم وعداوة من الحمقى والسفلة عبدة الأصنام، ويسكت بعض العظماء عن قول الحقيقة؛ خوفاً من سطوة الدهماء وغضبة الغوغاء، حتى يقول شوقي:

قَالَتِ الضُّفْدُ قَوْلًا

فَهَمَّتْهُ الْحِكْمَاءُ

فِي فَمِي مَاءٍ وَهَلْ

يَنْطِقُ مَنْ فِي فِيهِ مَاءٌ؟!

ومثله بالشعبي قال الشاعر الكبير أبو زيد محمد بن أحمد السديري:

كَمْ وَاحِدٍ لَهُ غَايَةٌ مَا هَرَجَهَا

يَكْنَاهُ لَوْ هُوَ لِأَدْنَىٰ مَحْتَاجٍ

يَقْضِبُ عَلَيْكَ الْمُخْطِئِ مِنْ حَجْجِهَا

نَبَاهُ وَقَلْبِهِ اسْوَدَّ مِنَ الصَّاحِ

والمعنى: كم من إنسانٍ عنده سر خاص لا يبوح به حتى على أقرب قريب

منه؛ لأن من الناس من لا يؤتمن على الأسرار وليس محلاً للشكوى ويفرح بالخطأ والزلة بينما تجد ظاهره معك فهو يظهر لك الصداقة والمودة بينما باطنه أسود من الحقد والحسد، أشدُّ سواداً من صاج الحديد الذي غيَّرتَه النار والدخان، وأنا أعزِّي اللامعين والناجحين الذين يواجهون هجوماً ساحقاً من الأغبياء بسيرة سيد الخلق ﷺ وهو يُجابه بجاهلية جهلاء تكون أحزاباً ضده وضد دعوته من مشركين أوغاد ومنافقين خونة ويهود ماكرين ونصارى حاقدين وأقارب جفاة فيصبر ويحتسب ويواصل وينتصر ويتوج بتاج: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. يقول الشاعر عبد الله البردوني يحيي سيد الخلق ونبي الأمة ﷺ ويصف شجاعته وصموده وصبره:

وشبَّ طفل الهدى المحبوب متشحاً

بالمجد متزراً بالنور والنار

في كفه شعلة تهدي وفي دمه

عقيدة تتحدى كل جبار

وانظر لعصر فتوحات المسلمين كيف حصل التجديد والإبداع، واتسعت الصدور للخلاف السائغ واشتغلت الأمة بالفتوحات والانتصارات والبناء والتّمدن، فلما ضعف حال الأمة وأصابها الهزال وقعت في حروب وهمية من الخلاف المذهبي والتّعصب والتقليد في ظل ظلم وجبروت من خلفاء بعضهم صبيان وبعضهم كبار سفهاء حتى يقول عن بعضهم الذهبي وابن كثير: واشتغل هذا الخليفة بالجوارى والشرب والغناء وكان مغرماً بمهارشة الكلاب ونطاح الكباش، فانحصر في عهدهم الإبداع العقلي والتجديد العلمي وأضطهد الأئمة والعباقرة والنبغاء فوضع ابن تيمية في الحبس وطُورد ابن خلدون وقُتل المتنبّي في الصحراء وحُجر على ابن رشد في بيته وأحرقت كتب ابن حزم وطُرد من مدينته وأغتيل لسان الدّين بن الخطيب، إذاً الإبداع والنجاح والتفوق والموهبة خطيئة لا تُغتفر عند المحبطين

ثورة التجديد

والفاشلين والكسالى والأدعياء، أما في مجتمع القيم والهمم والعزائم فإن الموهبة تُحترم والمتميز يُقدَّر والنابعة يُكرم وأهل الفضل يُصدِّرون وهذه قاعدة اجتماعية وسنة تاريخية: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.



العرب طلقوا الدنيا فتزوجها الغرب

يردد بعض الوعاظ في خطبهم قول الناظم:

إن لله عباداً فطناً

طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

وهذا البيت له معنى صحيح وخاطئ، أما المعنى الصحيح فإن عباد الله لا تشغلهم الدنيا عن طاعة الله ولا يجعلون الدنيا أكبر همهم ولا مبلغ علمهم ولا غاية قصدهم بل يجعلونها ممراً للأخرة، والمعنى الخاطئ هو فرض الدنيا بالكلية وعدم التزود من حلالها وترك عمارها والله يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾ أي لتقوموا بعمارتها، وكان الشيخ محمد الغزالي المفكر الإسلامي يقرأ هذا البيت هكذا:

إن لله عباداً فطناً

طلقوا الدنيا فتزوجها الغرب

وكلامه صحيح، فبعد أن أسس أجدادنا في القرون السابقة المفضلة أروع حضارة عرفها الإنسان تخلف العرب في عصور الانحطاط الحضاري والثقافي إلى أن صاروا يستجدون الشرق والغرب في باب الحضارة الدنيوية والوسائل المادية، وإلا فمن الذين عمروا عواصم العالم بالعلم والمعرفة إلا المسلمون الأوائل، أما أرسل أجدادنا أشعة النور والرقى والتمدن من مكة والمدينة والقاهرة ودمشق وبغداد والزيتونة والقيروان وقرطبة والحمراء والزهاء، وأقاموا أقسام الفقه والتاريخ وعلم الاجتماع والكيمياء والفيزياء والأحياء والطب والهندسة وأسماء العباقر المسلمين تزدان بها العواصم الغربية إلى اليوم، ثم وصل بنا الحال إلى أن صار غالبنا قبل عشرات السنوات أعراباً يرعون الإبل والغنم، ولا يعلمون أن تحت أقدامهم آبار البترول والغاز حتى وفد الخواجة أزرق العينين أشقر الشعر

من قبيلة بني الأصفر من أسرة بني الأشقر فأخرج البترول والغاز ومد الأنابيب وأقام المصافي وجهاز البراميل وصنع ناقلات البترول كالمدن العظيمة وأخرج من البترول والغاز عشرات الأنواع من البتروكيماويات فصنع بها أنية وملابس وحقائب ووسائل للحياة وأخذنا نلبس ونأكل ونرقص حاملين الهراوى والمشاعيب، ونردد:

خبر إسرائيل واللي وراها

وأخبروه عن بطولاتنا

وأصبحنا نهدد الحلف الأطلسي وحلف النيتو، وهذا لا يجوز لأن فيه تخويفاً وإرهاباً لهذه القوى العظمى الضاربة، ولا أدري لماذا العرب إلى اليوم يتركون العلوم العملية الميدانية التطبيقية ويكتفون بالعلوم التنظيرية والقصص الخيالية والأسمار والأشعار كقصة داحس والغبراء وعبس وذبيان ونقائض جرير والفرزدق التي تقرر على الطلاب في المراحل المتقدمة؛ ليتعلم الطالب فن السب والشتم والانتقام، أما مراكز البحوث والاكتشاف والاختراع فقد ظفر بها بنو الأصفر فملكوا بها العالم واستولوا على خيرات الأرض، فكل ما في بيتك أيها العربي، الآن هو من صنَّع الخواجات واقرأ موسوعة: (إبداع الخواجة، في صنغ الثلجة، وتركيب الزجاج، وإثبات أن من لا يسعى للمجد دجاجة)، أين تطبيق العرب للقرآن وهو يدعوهم للعمل والجد والمثابرة وعمار الأرض واستخراج خيراتها والإنتاج والإتقان والإبداع، والواجب على العرب أن يتواضعوا وأن يخففوا من شرب خمر المديح الذي ما قتل بعوضة ولا أقام نهضة، ولكن الأمل معقود في الله، وبشائر الأمل موجودة في جيل جديد مهيب صاعد مسلم، أصبح الآن في بلادنا وغيرها يأخذ مقعده اللائق به في كل مجالات التقدم والرقي والحضارة والمدنية:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾



الصحيح أننا لا نقاتل إلا من قاتلنا

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بعنوان (قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم) ، حققها الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الزير، وهي رسالة مهمة ومؤصلة، ونحن بأمر الحاجة إليها في هذا العصر الذي فُتح فيه قتال الكفار على مصراعيه من جماعات كثيرة باسم الإسلام ينقصها كثير العلم الشرعي المؤصل، يقول ابن تيمية: الكفار إنما يُقاتلون بشرط الحراب كما ذهب إليه جمهور العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة، وقال تلميذه ابن القيم: ولأن القتل إنما وجب في مقابلة الحراب لا في مقابلة الكفر، ولذلك لا يُقتل النساء ولا الصبيان ولا الزمنى والعميان ولا الرهبان الذين لا يُقاتلون، بل نقاتل من حاربنا. ولم يُكره ﷺ أحداً قط على الدين وإنما كان يُقاتل من يحاربه، وأما من سألته وهادته فلم يُقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه.

وفي رسالة ابن تيمية هذه تحقيق وتدليل لهذا القول الصحيح إننا لا نقاتل من الكفار إلا من قاتلنا، وهو رأي جمهور العلماء أما إطلاق المسألة ومقاتلة غير المسلمين بحجة الكفر ولو لم يُقاتلونا فهذا غير صحيح، ويجر علينا من المفساد والشر والأضرار ما لا يعلمه إلا الله، فالواجب نشر هذا القول الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وهو أن من سألنا من الأمم سألناه، وأننا لا نكره أحداً على الدين، وأنه لا يجوز لنا أن نفتح حرباً مع العالم بذريعة أنهم كفار ولا نحمل السلاح عليهم إلا إذا حملوا السلاح علينا بل ينبغي لنا أن ندعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ولا نرغمهم على اعتناق ديننا تحت التهديد والوعيد، بل ينبغي أن نفي معهم بالعقود والمواثيق التي لا تخالف ديننا ماداموا ملتزمين بها، ولا نقاتلهم وهم مسلمون لنا حتى يُقاتلونا، وعلى هذا فإن نقل المعركة إلى دول الشرق والغرب بحجة كفرهم منهج ليس بصحيح ورأي ليس بسديد، وقد وقع على المسلمين من آثار هذا المسلك أضرارٌ عظيمة وأضرارٌ وخيمة وشوّه الإسلام عند غير المسلمين، ووقع فساد عظيم

في الأنفس والأموال والأعراض، وما ذاك إلا لأن من قام بهذا القتال شباب لا يحملون علماً راسخاً ولا فهماً لمقاصد الشريعة ولا معرفة لفقهِ المصالح والمفاسد.

ومن يقرأ رسالة ابن تيمية هذه يقتنع تماماً بهذا القول الصحيح الذي دلنا عليه ابن تيمية وساق البراهين الساطعة والحجج القوية وكلام أئمة الإسلام، بحيث انتهى إلى هذا القول الذي فيه الخير العظيم لأمة الإسلام والحل الصحيح لما ابتليت به من فتنة تحت اسم «الجهاد» وهو في كثير من صورهِ اعتداء لا جهاد، وإني أهيب بالعلماء والدعاة ووسائل الإعلام أن تنشر هذه الرسالة القويمة والحجج المستقيمة التي أوردها هذا العالم الرباني والإمام الموفق المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد أوضح أن الإسلام دين رحمة وعدل وإنصاف وأنه بريء من العدوان والظلم والحيث حتى على غير المسلمين، وأقول: لو عملنا بمدلول هذه الرسالة لحصل للأمة الإسلامية الخير العظيم من انتشار الإسلام وكثرة معتنقيه وإظهار سماحته ويسره وما فيه من تعاليم جليلة وآداب جميلة اشتملت على مصالح العباد والبلاد، فبالله عليكم أنأخذ بكلام هذا الإمام المحقق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وكلام أئمة الدين أم نأخذ بكلام شابٍ غرَّ قليل البضاعة بالعلم ضحل التجربة، فقير المعرفة بالواقع والمصالح والمفاسد؟



مشاهد هزت الضمير العالمي

شاهدت شاه إيران وهو يُخلع من ملكه خلعاً ويُزَع من سلطانه نزعاً ويُطرد من وطنه طرداً بعد ما تجبر وتكبر وبغى وطفى وأذاق شعبه صنوف الإذلال وجرّهم كأس الهوان، فقلت: سبحان المعز المذل الذي يمهل ولا يهمل، وشاهدت تشاوسيسكو رئيس رومانيا وكان رعيدياً جباناً مستبداً طاغية اتخذ شرطة سرية تحرسه وتذيق الشعب أنواع البلاء وأشكال العذاب فخلعه شعبه ثم ذبحوه هو وزوجته ذبح الشياه فلم يكن له من أولياء ينصرونه وما كان من المنتصرين، وشاهدت سوهارتو الرئيس الإندونيسي يبكي أمام الميكرفون ويعتذر لشعبه بعد سنوات من الاستبداد والاستحواذ على خيرات إندونيسيا ثم يُحاسب هو وحاشيته حساباً عسيراً، وإنَّ في هذه المشاهد وغيرها عبر التاريخ براهين ساطعة على عظمة ملك الملوك تقدر اسمه وكيف تتحقق سنّته في الظالمين كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

وشاهدت ابن علي رئيس تونس المطرود المنبوذ بعدما أهرب شعبه وتفنن في أذية المسلمين وإغلاق المساجد وفتح المعتقلات وكنت قبل عشرين سنة في مجلس سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في الطائف مع أكثر من عشرين من العلماء والدعاة فأمر الشيخ أن تُقرأ علينا رسالة من السجون التونسية فيها صرخات الأسرى والمعذبين وفيها من صنوف الابتلاءات ما يشيب له الرأس ويتفطر له القلب وقد أشرنا جميعاً على سماحة الشيخ أن يكتب لجلاد تونس نصيحة سرية يعظه، وبعد فترة أخبرنا الشيخ بوصول رسالة من مفتي تونس الرسمي يدافع عن سيده ويبرر أفعاله ودارت الأيام وما ربك بظلام للعبيد فيخرج شعبه مكبرين كالبحر إذا انفجر فما كان منه إلا أن فر بنفسه تاركاً حاشيته وأعوانه وخدمه وحشمه ودوره وقصوره عبرة للمعتبرين وعظة للمتعطين، وشاهدتُ حسني مبارك يحيط

به الشعب المصري كالريح الصرصر العاتية يطالبونه بترك الحكم بعد سنوات من الاستبداد والفساد والكتبت والإقصاء فيؤخذ هو وزوجته وأبناؤه وحاشيته من القصور إلى المعتقلات ليواجهوا الجزاء الذي تقننوا في إلحاقه بالشعب ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

وشاهدتُ القذافي المصاب بجنون العظمة وداء الهستيريا يُخَيِّرُ شعبه بين أن يحكمهم أو أن يقتلهم وفي الأخير يجتمع عليه العالم فيُصف جواً وبراً ويفرُّ كالفار من جحر إلى جحر إلى أن قتل، ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾، ومما يهزُّ الضمير ما فعله النظام السوري حيث ينهزم أمام إسرائيل ويسلم الجولان لجيش الصهاينة ولا يطلق طلقة تجاه العدو، وكل الشعوب حررت أراضيها إما سلماً أو حرباً إلا النظام السوري فإنه فرَّ أمام جحافل الصهاينة وترك لهم الأرض ثم وجّه جيشه إلى شعبه يحاصرهم ويقتلهم ويعتقلهم ويعذبهم وينتهك أعراضهم ويصادر حرياتهم، لكن الفرج قادم ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.



الكاتب السبّاب الشتام

بعض الكتّاب سبّاب شتّام لا يعرف إلا تصيّد الأخطاء وجمع الأغلاط والفرح بالعثرات واكتشاف الزلات، وهذا زير أجوف وطبلة خرقاء، فمكوس الفطرة، ومقلوب الإرادة، ومطموس البصيرة يعمى عن المحاسن، ويفغل عن الإصابة، ولا يرى الإنجازات؛ لأن نفسه سقيمة، وأخلاقه عقيمة، في غدته سموم يفرغها على الناس، وفي فؤاده ديناميت يثوره على الآخرين، إن المعوقين نفسياً يجدون لذة في صلب الناجحين على خشبة الموت، وإن الأغبياء الحمقى يحسون بمتعة إذا مرغوا كرامة الشرفاء الأذكياء، الحسود الكنود يرى النعم على غيره تهديداً لأمّنه وراحته فيسعى في تدميرها. أين الإنصاف عند بعض الكتّاب وهو ينقد خصمه فلا يرى له حسنة ولا إصابة ولا إنجازاً؟ حينها يسقط من عين القراء؛ لأنه أصبح معروفاً بالحييف والتزوير وكتمان الحقيقة، إنك لن تستطيع بنفْسِكَ الضعيف أن تنفخ في وجه الشمس لتطفئها؛ فالشمس أكبر وأعظم من ذلك، ولن تستطيع بطرف ثوبك أن تغطي وجه القمر، والقمر أجلّ وأجمل، الكاتب العياب السبّاب الشتام النمام ذباب وقع في مجزرة فهو يحمل القذى ويدور بالأذى ويوزع الوباء على الناس، أما الكاتب العفيف الشريف فهو كالنحل تمص رحيق الزهور وترشف ماء الورود ثم تنتج عسلاً مصفى فيه شفاء للناس.

يا حسرة على أعداء النجاح، صارت قلوبهم أفران غيظ وبراكين عداوة ومزابل حقد وحسد، ولو أنصفوا لاغتسلوا بماء الحب ولبسوا ثياب السلام ووزعوا على الناس ابتسامات الأمان وكلمات الرضا وورد البشري، دع المفتري الناقم والحاسد الجاحد يلقي جزاءه بفعله ويقتل نفسه بخنجره ويتجرع كأس السم بيده، فهو وحده الذي أسهر ليله بحقده وأتلف أعصابه بحسده، ومزّق روحه بانتقامه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، إذا لم تُثْنِ على خيرٍ فلا تسبّه، وإذا لم تشجع ناجحاً فلا تتبّطه

وإذا لم تساعد عاملاً مثابراً فلا تطعنه، عداوتك لأرباب النجاح معناها أنك فاشل، وغيظك من المتفوقين يخبرنا أنك راسب، فلا تشهد على نفسك بالسقوط والخمول فإن مزبلة التاريخ تنتظر كل وغد بليد، وكل جبار عنيد، لعل من حكمة الله أن جعل للأبرار أشراراً يكفرون عنهم السيئات بالسب والشتم؛ لحمايتهم من داء الكبر والعُجب، ولا بد للتحف من مناشف ومناديل تمسح عنها الغبار: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، النقد الأثم للناجحين براءة اختراع وشهادات حسن سيرة وسلوك؛ لأن الرذيل الهزيل يضيق ذرعاً بأهل الفضائل، والجعلان تزكم من روائح الزهور، والخنفساء يقتلها ماء الورد.

مر الأسد بغدير فتقنقت الضفدع تحذّره، فقال لها: يا ضفدع، أنت في مكان مهين أسفلك في الماء وأعلاك في الطين، أما علمت أنني كسرت قوافل الجمال، وها بنى الرجال، واهتزت لزيّري الجبال. ألفت تحية للناجحين وللحساد، كرت أحمر للفاشلين مكتوب عليه: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.



رعاية الشباب للعقل والجسم

في زمن الأمير فيصل بن فهد دُعيت أنا وغيري لإلقاء محاضرات وندوات بنادي الهلال والنصر والوحدة والأهلي وغيرها من الأندية، فقد صاحب السطوع الرياضي سطوع علمي وثقافي، ثم مرت سنوات عجاف من الخمود والهمود، حصل فيها هزال رياضي وعلمي وثقافي، وقد استبشرنا خيراً بالأمير الشاب الطموح نواف بن فيصل ليعيد للأندية وهجها العلمي والثقافي والرياضي، فالاهتمام بالرياضة الأجسام لا بد أن يتبعها الاهتمام بثقافة العقول؛ لأن قيمة الإنسان بعقله لا بجسمه وقد يتمدد الجسم ويضمّر العقل إذا ما غُذي بالمعرفة والعلم والثقافة، ونريد من رعاية الشباب أن تملأ قلوب الجيل بالإيمان وأفكارهم بالمعرفة وأجسامهم بالقوة؛ لأن ديننا أتى بهذه المعاني وقصد إليها، ونحن أهل رسالة ربّانية كلما نسيناها ذكرنا بها العلم الأخضر المكتوب عليه: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) الذي نحمله معنا في ملاعب العالم، وهو العلم الوحيد الذي لا يُنكس في الأحزان والكوارث ولو نُكست كل الأعلام؛ لقداسة وعظمة هذه الكلمة التي يحملها، والتي دفعت الأمة الإسلامية من أجلها ملايين الشهداء على مر التاريخ.

إن علينا أن نجعل الأندية الرياضية مسجداً ومكتبةً وقاعةً؛ فنجمع بين العبادة والعلم، والقراءة والرياضة، ونطمح أن يعود للأندية وهجها وسطوعها ولموعها، وأنا أذكر يوم استقبال نادي الهلال محاضرةً قدّم لها الأمير عبد الله بن سعد عن (دور الإيمان في حياة الشباب) وغيرها من المحاضرات، وأذكر محاضرات نادي النصر كمحاضرة (النصر لنا) مع فعاليات ثقافية أخرى، وصاحب ذلك حيازة الكأس والنجاحات المتتالية، ثم جاءت فترة جفّت فيها المحاضرات واختفت فيها الإنجازات، فهل من عودة لروح جديدة مع شباب جاد مثابر يغار على رسالته ووطنه وأمتة، إن الرياضيين هم إخواننا وأبنائنا، وواجب العلماء والدعاة والمفكرين التواصل معهم والالتقاء بهم؛ للاستفادة والحوار تحت

مظلة ديننا العظيم، ولكن هذا يأتي بإعادة النشاط الأول والوهج القديم حيث يكون هناك لرعاية الشباب جهازيٍ دعويّ ثقافيّ يتابع ويطور هذه الأنشطة حتى نقدّم شبابنا إلى العالم بأجمل صورة، نقدّم شباباً يحملون فكراً سليماً ومنهجاً قوياً مع ما يتمتعون به من لياقة بدنيّة ومعرفة رياضيّة، ماذا تنفعنا أجسام قوية وعضلات ضخمة تحمل عقولاً صغيرة وأفكاراً هزيلة وثقافة هشّة، وقد وصف الله قوماً أهملوا نور المعرفة وبركة العلم، فقال عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ حُشْبٌ مُّسْنَدَةٌ﴾.

كل رياضي عندنا لا يختلف في الواجبات عن أي مسلم آخر من طالب علم أو طبيب أو مهندس أو عسكري أو عامل، عليه أن يصطحب في سفره مصحفاً وكتاباً؛ ليجمع بين واجب العقل وواجب الروح وواجب البدن، واني بالمناسبة أحيي شبابنا الذين سجدوا في الملاعب العالمية يوم تسجيل الأهداف وهي سجدة تهز الضمير، وترفع الهمة، وتملأ الرؤوس شمماً وعزة ونخوة، وهذه السجدة في الملاعب عند تسجيل الهدف رسالة أبلغ من ألف محاضرة؛ لأنها يشاهدها ملايين البشر، ولأن لها معنى وإيحاء في ذلك الزمان والمكان.



إلى الحوار الوطني: نريد أنديّة حوارية

كانت العرب لها أنديّة في جاهليتها وفي إسلامها، وهذه الأنديّة مكان للأشعار والأخبار والأسمار، وجاء الإسلام فوجّهها الوجهة الصحيحة من حيث سمو الهدف وآداب المجلس وكمال الفائدة، ونحن اليوم في حاجة إلى أنديّة حوارية علمية أدبيّة تُفتح كل يوم إلى شطر الليل الأول تستقبل الوافدين من شبابنا، ويكون النادي كالمقهى قريباً من كل حي مرتباً منظماً فسيحاً، به مكتبة وأماكن مهيأة للجلوس وأساتذة في العلم والأدب والثقافة والفكر يشرفون على هذه النوادي، وتتولى هذه النوادي شركة كبرى عالميّة تقوم على النظافة والترتيب وتوفير سبل الراحة للزائرين، وسوف تكون هذه الأنديّة حلاً لمشكلات الفراغ التي عصفت بكثير من الشباب، فعاشوا الفوضى والقلق والاضطراب، وأخذوا يجتمعون في استراحات ومنتزهات مع كل من هب ودب بلا إشراف ولا رعاية ولا توجيه ولا تربية، فربما تأثروا بجليس السوء وعادوا إلى أهلهم بأفكار مشبوهة وسلوك ذميم.

وأنا أعلم أن عندنا مطاعم كثيرة ومتنوعة في المدن لكنها لتناول الطعام، والذي نريده مقاهي حوارية مرشّدة في كل حي، فيها أسباب المتعة المباحة مع الإرشاد السليم، وكانت القاهرة قديماً مشهورة بهذه الأنديّة، والآن تتصدر باريس ولندن مدن العالم بهذه المقاهي، ولكننا أصحاب رسالة سماوية نحتاج إلى مقاهٍ تتفق مع رسالتنا، وقد وجدت عندنا النوادي الرياضيّة والنوادي الأدبيّة الحوليّة التي يجتمع أصحابها نادراً على محاضرات يحضرها عشرات في رأس السنة، والذي ينقصنا هو نوادٍ للحوار كل يوم يُذهب فيها الشاب مله وضجره بالحياة، حيث يجد فيها الصديق الصادق وطالب العلم والطبيب والمهندس والمفكر والشاعر والمثقف، ولا بأس أن يكون في هذه الأنديّة أمسيات شعرية وخطابية وحوارية ومطارحات ومساجلات ولقطات فكاهية ومسابقات وجوائز.

وقد ذكر الكاتب الشهير بهذه الصحيفة الأستاذ سمير عطا الله أن الفرنسيين أطول أعماراً؛ لما يجدونه من مقاهٍ تذهب الملل والأرق والقلق، ولكننا نحن في حاجة إلى مقاهٍ مهذّبة من كل سوء، تجمع بين متعة النفس المباحة وزاد العقل من العلم والمعرفة، وإذا لم تقم شركة بهذا العمل فعسى أن يُسند إلى الجامعات والمؤسسات والشركات القيام بهذه الأندية الحوارية في كل حي ومدينة وقرية بإشراف رؤاد الحوار الوطني الكرام؛ لتتحول التعليمات من التنظير إلى التطبيق ومن الهم والهاجس إلى العمل والميدان؛ حتى يكون عندنا لياقة ودُرْبة على الحوار، ولا نكتفي فقط بعقد مؤتمر سنوي في مدينة من المدن دون مباشرة لهذا الحوار في كل زمان ومكان؛ لأن الحوار عمليّة دائمة وقضيّة ملازمة لنا في بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا وحياتنا اليوميّة، ولن تصلح كثير من مشكلاتنا وتُهدّب أخلاقنا إلا بممارسة صادقة جادّة واعية يوميّة للحوار.

وأقول للإخوة الفضلاء بالحوار الوطني: إذا أراد شبابنا في وقت فراغهم كل يوم أن يذهبوا إلى مجلس مفتوح ونادٍ يرحّب بهم ومقهى يستقبلهم بالكلمة الجميلة والفكرة الصائبة والقصيدة العصماء والنكتة البريئة والصدّاقة النافعة والحوار البنّاء والثقافة الراقية وحفظ الوقت في النافع المفيد، فأين يذهبون؟ وإن من يطالع شكاوى الشباب ويداخلهم ويستمع إليهم يعلم علم اليقين أنهم في حاجة ماسة إلى نادٍ حضاري علمي أدبي ممتع في كل حي مفتوح الأبواب فسيح الجنبات يلبي طموحهم ويحفظ أوقاتهم، وعسى أن يجد هذا الرأي من يحتضنه ويجعل منه مشروعاً وطنياً نجد أثره في مئات المقاهي الحوارية والأندية العلمية الأدبية؛ ليتحول كل حي إلى نادي عكاظ بصبغة إسلاميّة وروح شبابيّة تحفظ العقل والجسم والوقت والخلق والوطن.



العرب وعقدة المؤامرة

يقول القذايبي: إن العالم متآمر على ليبيا؛ حسداً لها على ما ينعمُ به شعبها، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، ويقول الإعلام الرسمي السوري: إن سوريا تتعرض لمؤامرة خارجية لدورها النضالي البطولي في المقاومة والصمود والتصدي والممانعة -يا لطيف يا لطيف، يا ساتر يا ساتر- مع العلم أن الجولان مازال تحت الاحتلال لما يقارب نصف قرن، وإعلام اليمن الرسمي ذكر أن اليمن مستهدف لأنه العمق الحضاري للعرب والبعد الإستراتيجي القومي للأمة إلى آخر هذا الهذيان والهلوسة والهبال، وإعلام الأردن الرسمي شكَا من مؤامرة خارجية بأصابع خفية يتعرض لها الأردن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأقول: متى تكفون يا أعراب، عن عقدة المؤامرة والفرار من الاعتراف بالخطأ إلى البحث عن كبش فداء؟

متى تتوبون يا أعراب، من هذه المسرحية الهزيلة باتهامكم الخارج وتعليق أخطائكم على الغير؟ من أنتم حتى يتأمر عليكم العالم؟ من حضرتكم حتى تشتغل بكم القوى العظمى؟ لماذا يستهدفكم العالم وعلى ماذا يحسدكم؟ الثرواتكم وشعوبكم تذوق الجوع والعري والجهل والمرض والتخلف؟ أم يستهدفكم لصناعاتكم وإنتاجكم ومراكز البحوث عندكم ومصادر الطاقة وصروح المعرفة ومخازن الأسلحة والمدمرات والبارجات والمراكب الفضائية وحاملات الطائرات وأنتم لا تستطيعون صناعة سيارة هايلكس، بل أنتم في ذيل قائمة دول العالم صناعةً وزراعةً وتعليماً وتنميةً وإنتاجاً، إن ميزانية شركة غربية واحدة أكبر من ميزانية هذه الدولة مجتمعة، وإن الشعوب خرجت في مظاهرات سلمية تريد الغذاء والدواء والهواء والماء والكهرباء والحرية والكرامة، وهذه الدول عجزت عن تلبية الحاجات الضرورية لمواطنيها، فاتهمت العالم بالتآمر عليها، وكم الجرادَة أصلاً وثمنها ولحمها ومرقها؟

ومثّل هذه الدول العربية المذكورة التي اتهمت العالم الخارجي باستهدافها كمثل بعوضة وقعت على نخلة، فلما أرادت البعوضة أن تطير قالت للنخلة: تماسكي فإني أريد أن أطير، فقالت النخلة لها: والله ما شعرت بك يوم وقعت، وما شعرت بك يوم طرت.

أمريكا وأوروبا والصين واليابان وكندا وروسيا منهمكون في المصانع والمعامل وصنع النووي وإنتاج الطاقة وغارقون في الاكتشافات والاختراعات، وقد يكون لهم وجهة نظر في هذه الأنظمة، أما أن لنا نحن العرب أن نشغل بعيوننا ونصلح أخطاءنا ونراجع أنفسنا ونتوب من عقدة المؤامرة التي أصبحت نكتة سامجة ولعبة مكشوفة؟ قال صديقي وزميلي أبو الطيب المتنبّي في رجل نكرة مجهول تمنى أن يمدحه المتنبّي أو يهجوّه على الأقل؛ ليشتهر:

صَغُرْتُ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتُ: أَهْجَى

كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الْهَجَاءِ

إن القرآن أحال سبب هزيمة أحد إلى اختلاف الصحابة، فقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، والأخطاء والتجاوزات يتحملها أصحابها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، أما اتهام الآخرين واستخدام العالم مشجباً لتعليق الأغلاط فهذا من عمى البصيرة وفساد الرأي، وإن المريض لن يتعافى حتى يعترف أولاً بأن عنده مرضاً، وأنه لن يتشافى إلا بدواء ناجع يستعمله، لا فرار إلى الأمام ولا تستر في الظلام، بل الحق في الشجاعة والاعتراف بالخطأ والتغيير إلى الأفضل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.



السعوديون والمشروع الإسلامي

نحن في السعودية توحدنا على مشروع الإسلام فحسب، فليس عندنا شعار ولا مشروع يجمعنا ولا منهج يؤلف بيننا إلا الإسلام، مؤسس الدولة الملك عبدالعزيز أعلن أن الدولة إسلامية شرعية شعارها: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ليس عندنا مكان لدولة قومية أو علمانية أو ليبرالية أو شيوعية أو رأسمالية، الشعب السعودي متدين بالفطرة لسنا ملائكة ولا أنبياء ولسنا شعب الله المختار، لكننا مسلمون مؤمنون بالله، خيارنا الإسلام، وقدرنا الإسلام، وقضيتنا الإسلام، نموت ونحيا بالإسلام، كل الشعب بدرجاته في التدين يرفض المساس بالدين، من أراد أن يجرب حب السعوديين للإسلام فليرسل في أي مدينة أو محافظة أو قرية مهبولاً أو معتوهاً ليقول: لا، للقرآن أو لا، للسنة ليرى كيف يكون الرد أو الجواب على هذا المهبول المعتوه، سوف يعود إلى بيت أهله جنازة، أتحدّى في أي تجمع سعودي أن يقوم أفاك أثيم فينتقد الرسول الكريم - بأبي هو وأمي ﷺ - فلن يُكتفى بالرد على هذا الأفاك الأثيم بالقول لكنّ بالضرب بالأحذية والصفع بالنعال.

نحن أعلننا للعالم أن خيارنا ومشروعنا الإسلام منذ بعث الرسول ﷺ. والكلمة التي هزت مشاعر السعوديين وأثلجت صدورهم وألهبت حماسهم يوم قال خادم الحرمين الشريفين يوم البيعة (أعاهدكم أن أجعل الإسلام منهجي والقرآن دستوري).

لونت الرمل في بلادنا لفاحت منه رائحة دماء الشهداء في سبيل الله ونصرة لا إله إلا الله، لو قلبت الصخر عندنا لوجدت بقية جماجم الأبطال الذين صنعوا ثورة الإسلام في بلادنا، ونقلوها إلى العالم فاتحين ومصلحين، لو نطق الحجر في أرضنا لقال: لا إله إلا الله، كل مشروع يخالف الإسلام مرفوض ومكتوب عليه الفشل سابقاً، نحن جنود لهذا المشروع، رضي من رضي، وغضب من غضب، من لم يعجبه مشروعنا مشروع الإسلام فليضرب برأسه الحائط.

إذا كان عندنا إصلاح أو تجديد أو تطوير أو تغيير فتحت مظلة المشروع الإسلامي، ونحن لا ندعي احتكار الإسلام أو أننا مثلنا الإسلام تمثيلاً كاملاً أو أننا معصومون من الخطأ والتقصير، لكن نقول: نحن أبناء الرسالة وأبطال البعثة وأنصار التوحيد وحماة الشريعة، وجنود الله، نحن لن نستورد مشروعاً أجنبيّاً وقد أغنانا الله بالوحي المقدّس، نحن شريعتنا من فوق وشريعتهم من تحت، نحن دستورنا من أعلى ودستورهم من أسفل: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فنحن نريد الإصلاح المستمر على نهج الكتاب والسنة، ننشد الكمال عن طريق الشريعة، نحن في مهبط الوحي كباراً وصغاراً، أطفالاً وشباناً وشيوخاً رجالاً ونساءً، علماء وعمامة، حاضرة وبادية، لا نريد إلا شرع الله وهو الذي ألف بين قلوبنا، نحن أكثر من مئة قبيلة كانت قبل الوحدة متناحرة متقاتلة فكان سبب جمعها وتوحيدها كلمة التوحيد المسطرة على علم الوطن: (لا إله إلا الله محمد رسول الله).



شكراً للمنصفين

حقُّ علينا أن نعتزُّ للآخر إذا أنصف وأحسن، وفي القرآن: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ وفي هذا اعتراف لبعض أهل الكتاب بأنه محسن، وقد وقع بعض مشاهير الغرب ونجومه شهادات صادقة في حق الإسلام ورسوله ﷺ، فهذا المؤرخ الفرنسي الشهير جوستاف لوبون يقول: ما عرف العالم فاتحاً أعدل ولا أرحم من محمد ﷺ. وهذه الشهادة زادت من قيمة هذا المؤرخ عند أهل الشرق من المسلمين، وشكره عليها العقلاء، وفي ديننا إنصاف لمن خالفنا إذا أجاد في باب من الأبواب، ففي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة إلا والروم أكثر الناس»، والروم أجداد الأوروبيين والأمريكان فعلق على الحديث عمرو بن العاص بقوله: إنهم أمنع الناس لظلم الملوك، أي إنهم يعدلون فيما بينهم ولا يقرون الظلم في مجتمعاتهم، ولهذا كان كل عاقل شريف يحترم علمه وقلمه ينصف من خالفه فيستحق بذلك وسام التقدير كما فعله الكاتب الأمريكي مايكل هارث في كتابه (العظماء المئة) وهؤلاء العظماء يقصد بهم عظماء الخليقة منذ آدم إلى الآن، ولك أن تتصور من كاتب أمريكي أن يجعل العظيم الأول في كتابه هو محمد ﷺ؛ لأنه قصد الحقيقة فأرضى ضميره وصان اسمه من الحيف والزور.

وإنما أسوق هذه الأمثلة ليستفيق من يوقع شهادات الزور ومن يصدر أحكاماً جائرة منّا على الغير ومن الآخر علينا، إن من بني جلدتنا من لا يرى في الغرب إلا الهمجية والتحلل والحياة المادية والاستعلاء بالقوة ونحو ذلك من المعاييب والمثالب، حتى إنني سمعتُ لأحد العرب ممن يقيم في بريطانيا عبر فتاة فضائية يصب جام غضبه على المجتمع الغربي، ويصفه بأبشع الصفات، وتساءلتُ: فلماذا يقيم بين أظهرهم ويدرس في جامعاتهم ويستفيد من الخدمة المجانية من مؤسساتهم، بل يلجأ البعض إليهم بحجة الفرار من القهر والكتب، ثم تُفاجأ وإذا هو يهجوهم صباح مساء ولا يعترف لهم بحسنة واحدة، والقرآن يرفض هذا المسلك المشين

من تزوير الشهادات والظلم في الأحكام حتى مع الأعداء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وأيضاً فعند الغرب ساسة وكتاب وفلاسفة ظلموا الإسلام ولم يعترفوا له بأي حسنة، فهو عندهم دين القهر والغاء الآخر وإقصاء المخالف والاستيلاء على مقدرات الغير وهذا ظلم صارخ للإسلام، وكان الواجب على هؤلاء لو أرادوا الإنصاف أن يقرؤوا الإسلام بتجرد، وأن يحاكموه إلى المنطق والعقل وأن يسلكوا مسلك حملة الضمير من مشاهيرهم كبرناردشو، والقائد نابليون والكسيس كارليل وغيرهم، والواجب علينا أيضاً نحن أن ننصفهم فيما أجادوا فيه من رقي مادي وتقدم صناعي واقتصادي ونحوه، ولولم يكن عند الغرب إيجابيات في نواح كثيرة لما أقدم كثير من أبناء الشرق على اقتحام البحر؛ هرباً إلى تلك البلاد، فمنهم من يفرق ومنهم من يخرج من البحر سالماً ليقول لسان حاله وهو يلتفت إلى وطنه الأم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

فهل هذه حسنة للغرب أو سيئة؟ إن الإجحاف في الحكم من الطرفين الشرق والغرب أوصلنا إلى حالة تأزم في العلاقة وضيق في الأفق وانسداد في طريق التواصل والتحاور، فكيف يقبل المسلمون أفكار من يزعم أن الإسلام دين سيف وعدوان، وكيف يقبل الغرب من يقول منا: إنهم قطع من الأنعام ليس لهم أي خصلة حميدة، إن الذي يريد أن يلتقي مع الغير على مصالح مشتركة ويريد أيضاً أن يفهمه الآخر فعليه أن يكون عادلاً منصفاً، كما قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ وإن مصيبتنا مع من خالفنا أنه لا ينصفنا فتجده يلغي كل حسنة لديننا ويشطب على كل فضيلة لتاريخنا وبعدها يريد منا أن ننصفه!! وأيضاً يقابل هذا طائفة منا تنظر لمن خالفها بنظارات سوداء، ترى الدنيا كلها سواداً في سواداً، والمنصفون حتى في مجتمعنا قليلون وهم من يستحق الشكر والثناء الجزيل، وكثير تحمله روح الانتقام على إصدار الأحكام الجائرة في حق من خالفه ولو كان معه في دائرة الإسلام،

فتجد لافتات التكفير والتفسيق والتبديع ويوحى لك بحكمه الظالم أن الجنة له ومن وافقه فحسب: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ وإنني أقول دائماً: الحمد لله الذي جعل مفاتيح الجنة عنده ولو كانت عند بعض الناس لما أدخل إلا من وافقه على رأيه: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾.

في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ أمر بجلد رجل شرب الخمر، فقال بعض الصحابة للشارب: لعنه الله فأنكر عليه الرسول ﷺ قوله وقال له: « لا تقل ذلك فإنه يحب الله ورسوله»، فانظر لهذا الإنصاف لرجل اشتهر عنه كثرة شرب المسكر؛ لأن في الحديث أنه أتى به مراراً ومع هذا فقد بين الرسول الكريم ﷺ أن هذا الرجل يحمل حب الله وحب رسوله، فلا يجوز أن يلعن، إنني لا أفسر عدم إنصاف الأشخاص أو الدول أو الشعوب أو الأفكار إلا بضيق الأفق وركاكة العقل ونقص العلم وضحالة الثقافة:

والذي نضسه بغير جمال

لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

إن صاحب الكتاب الواحد والفن الواحد الذي لم يسمح لنفسه بالاطلاع والسماع والحوار لا يحق له أن يتصدر الجموع ليصدر أحكاماً في حق الآخرين، إذا صار من الواجب على حملة الأقلام وصنّاع الحرف ورواد المعرفة أن يقتلوا القضية بحثاً، وأن يستولوا على المسألة دراسةً واطلاعاً حتى يصلوا إلى الرسوخ العلمي: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ﴾ وحتى ينالوا اليقين المعرفي ويخرجوا من دائرة الوهم والظن: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ شكراً للمنصفين منا ومن غيرنا، وشكراً لأخينا وصديقنا أبي الطيب المتنبّي حيث يقول:

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنصَافِ قَاطِعَةً

بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ



الضحك على الذقون

كثرة عدد السكان مع الجودة فضيلة عند الأمم لكن الخطأ أن يكثر العدد بلا نفع ولا إنتاج، والإسلام يحث على طلب الذرية الطيبة الصالحة، ولكن إذا تحولت كثرة النسل إلى عبء اجتماعي صار هذا خطأ في التقدير، ونحن في الشرق أكثر الأمم نمواً سكانياً مع ضعف في التربية والتعليم، فقد تجد عند الواحد عشرين ابناً لكنه أهمل تأديبهم وتعليمهم فصار سهرهم في دبكة شعبية مع لعب البلوت وأكل الفصص بلا إنتاج ولا عمل، بل صاروا حملاً ثقيلاً على الصرف الصحي والطرق والمطارات والمستشفيات، بينما الخواجة ينجب طفلين فيعتني بهما فيخرج أحدهما طبيباً عالمياً والآخر يهبط بمركبته على المريخ، وأنا ضد جلد الذات لكن مادام أن الخطأ يتكرر والعلاج يستعصي فالبيان واجب، مازال بعض العرب يرفع عقيرته عبر الشاشات ويقول: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، ثم تجده في عالم الشرع لا يحفظ آية الكرسي، وفي عالم الدنيا لم يسمع بابن خلدون وابن رشد.

وتجد الغربي ساكتاً قابلاً في مصنعه أو معمله يبحث وينتج ويخترع ويبدع، أرجو من شبابنا أن يقرؤوا قصة أستاذ ثورة اليابان الصناعية «تاكيو أوساهيرا» وهي موجودة في كتاب (كيف أصبحوا عظماء؟) كيف كان طالباً صغيراً ذهب للدراسة في ألمانيا، فكان ينسل إلى ورشة قريبة فيخدم فيها خمس عشرة ساعة على وجبة واحدة، فلما اكتشف كيف يدار المحرك وأخبر الأمة اليابانية بذلك استقبله عند عودته إلى المطار إمبراطور اليابان، فلما أدار المحرك وسمع الإمبراطور هدير المحرك قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي، وطالب عربي في المتوسطة سأله الأستاذ: الكتاب لسبويه من ألفه؟ قال الطالب: الله ورسوله أعلم، والتمدد في الأجسام على حساب العقول مأساة، والافتخار بالآباء مع العجز منقصة، لن يعترف بنا أحد حتى نعمل ونتج، فالمد مغالبة والسوق مناهبة، وإن النجاح قطرات من الآهات والزفرات والعرق والجهد، والفشل زخات

من الإحباط والنوم والتسويق، كن ناجحاً ثم لا تبال بمن نقد أو جرح أو تهكم،
إذا رأيت الناس يرمونك بأقواس النقد فاعلم أنك وصلت بلاط المجد وأن مدفعية
الشرف تطلق لك إحدى وعشرين طلقة احتفاءً بقدمك، ويعجبني قول صديقنا
وزميلنا أبي الطيب:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ
لَمَّا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٍ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ
الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٍ

لقد هجر الكثير منا الكتاب وأصبح يعيش الأمية فلا يحفظ آية ولا حديثاً
ولا بيتاً ولم يقرأ كتاباً ولم يطالع قصة ولا رواية، ولكنه علق في مجلس بيته شجرة
الأنساب؛ ليثبت لنا أنه من أسرة آل مفلس من قبيلة الجهلة، والوحي ينادي:
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعُكُمْ﴾، والتاريخ يخبرك أن بلالاً مولى حبشي وهو
مؤذن الإسلام الأول وأن جوهر الصقلي فاتح مصر وباني الأزهر بربري أمه تبيع
الجرجير في مدينة سبته، ولكن النفس الوثابة العظيمة لا تعتمد على عظام الموتى؛
لأن العصامي يشرف قبيلته وأمه وشعبه ولا ينتظر أن يشرفه الناس، لقد كان
نابليون شاكياً فقيراً لكنه جدّ واجتهد حتى أخذ التاج من لويس الرابع عشر، وفتح
المشرق وصار في التاريخ أسطورة، وهو القائل: الحرب تحتاج إلى ثلاثة: المال ثم
المال ثم المال، والمجد يحتاج إلى ثلاثة: العمل ثم العمل ثم العمل، لقد أرضينا
غرورنا بمدح أنفسنا حتى سكر القلب بخمر المديح على مذهب جرير: أَلَسْتُمْ خَيْرَ
مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا؟ وقد ركب الآخر بساط الريح وإف ١٦ والكانكورد، ولو اجتمعنا
ما أنتجنا سيارة فلوكس واجن فضلاً عن كراسيدا، ورحم الله امرأ عرف تقصيره
فأصلح من نفسه ولا بد أن تقنع المريض بمرضه حتى يستطيع أن يعالج نفسه،
على أنني أعترف أن عندنا عباقره ونوابغ يحتاجون إلى مراكز للبحوث ومؤسسات

لرعايتهم ومعامل ومصانع لاستقبال نتاجهم، لقد تركت اليابان الحرب وتابت إلى الله من القتال وتوجهت للعمل والإنتاج، فصارت آيةً للسائلين وكُدس العراق قبل الغزو السلاح واشتغل بحروبٍ مع الجيران فانتهى قاداته إلى المشنقة، وجُوع الشعب ثم قُتل وسُحِق، سوف نفتخر إذا نظر الواحد منّا إلى سيارته وثلاجه وتلفازه وجواله فوجدها صناعةً محلية، وأرجو أن نقتصد في الأمسيات الشعرية فإن عشرة دواوين من الشعر لا تتج صاعاً من شعير، يقول نزار قباني:

وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا

متى البنادق كانت تسكن الكتب؟

وعلينا أن نعيد ترميم أنفسنا بالإيمان والعمل وتهذيب عقولنا بالعلم والتفكر، وهذا جوهر رسالتنا الربانية الخالدة وطريق ذلك المسجد والمكتبة والمصنع، والخطوة الأولى مكتبة منزلية على مذهب الخليفة الناصر الأندلسي يوم أُلزم الناس بإنشاء مكتبة في كل منزل وقراءة يومية مركزة، وهذا خير من مجالس الغيبة والقبل والقال وقتل الزمان بالهذيان: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾. وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿﴾



خطاب النخبة

الشرائع السماوية خاطبت الجمهور بلغة قريبة سهلة، لكن المشكلة أن البعض يصعب العبارة ويعقد المعلومة؛ حتى لا يفهمه إلا نفرٌ يسير، فإذا تكلم تقعرّ وتشدق، والبياض إذا أكثر أصبح برصاً، وكان ينبغي على رجال العلم والثقافة وحملة الأقلام عموماً أن يتنزّلوا بخطابهم إلى جماهير الناس، ولا ينتهي عجبني من كبار المثقفين وهم يلوكون مصطلحات لا يعرفها إلا ابن رشد وجان جاك روسو، وفولتير، ولقد سمعتُ أحد المفكرين الفلاسفة الكبار وقد جاوز الثمانين في إحدى القنوات وهو يتكلّم بحذر وتكلّف وتقطع، ثم سعل ثم عطس ثم تئأب ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر، يحدثنا عن الجوهر والعرض عند سقراط ونظرية الشك عند ديكارث عبارات ملفّزة كأنها طلاس من فقلت في نفسي: من يفهم هذا الكلام؟

وبعض طلاب الجامعات العرب لا يعرف هل سقراط صيني أو روسي أو من عمّال الفحم في ساحل العاج، وبقيتُ أشاهد هذا الفيلسوف وهو يعصر ذهنه ويقطب جبينه؛ ليقول لنا: «إن المعرفة تنطلق من أطر المصطلحات وتنبثق من بوتقة العلم الأمتاهي لنجد فيها الأفكار الماضوية والأيدولوجيات حسب ذهنية المتلقي المحايد» فقلت: الحمد لله على السلامة ورجعتُ إلى نصوص الوحي وكلام الأنبياء وحكم العلماء، فوجدتُ السهولة والإشراق والوضوح، هل نحن في حاجة حتى نثبت للناس أننا متقنون وفلاسفة أن نمطرهم بمصطلحات غريبة شائكة يُصاب منها السامع والقارئ إلى بدوار ودواخ؟ لمن نتحدث إذا كان جمهورنا لا يفهم ما نقول ولا يعي ما نكتب؟

إن التعصّب والتعسير يجيده الكثير ولكن التيسير والتسهيل لا يجيده إلا القليل، وكلام بعض الفلاسفة كلحم جمل غث في إناء من ذهب على رأس جبل وعر، فلا اللحم سمين يستأهل أن يُحمل، ولا الجبل سهل يُرتقى فيه، ثم إن كثيراً

من القضايا الفلسفية قد عفا عليها الزمن وجدت هناك مصطلحات علمية، فلماذا نخاطب القوم بخطاب أرسطاطليس وجالينوس.

ولقد قرأنا لأساطين العلم والأدب شعراً ونثراً كالشافعي والجاحظ وابن تيمية والمتنبي فوجدنا إشراق العبارة، ووضوح الفكرة وسهولة الجمل وعذوبة اللفظ، بل إن بعض الأدباء يعدُّ مقدمة ابن خلدون لوحات أدبية جميلة مع العلم أن تونبي المؤرخ الإنجليزي الشهير يقول: «ما أنتج عقل بشري كمقدمة ابن خلدون، إن بعض مثقفينا يحتاجون إلى دورات تدريبية مع كتب الجاحظ ولسان الدين الخطيب وابن الجوزي؛ ليخرجوا من عقدة التكلف والأحاجبي والألغاز التي يمتطرونها بها صباح مساء وكأنها طلاس المنجمين، إن أكبر مثقف في عالم الأدب عند العرب هو الجاحظ ومع هذا فلا زال كلامه عذباً سهلاً يذوب رقةً ويفيض إشراقاً ويشع جمالاً كما قال ابن الرومي في محبوبته:

وحديثها السحر الحلال لو أنّها

لم تجن قتل المسلم المتحرّز

إن طال لم يمل وإن هي أوجزت

ودّ المحدث أنّها لم توجز

سلام على من أحسن الخطاب وطالع بيان القرآن الأسر؛ ليعيش تلك الفصاحة الباهرة مع ظهور المعنى وحسن السياق وجماليات التركيب، ولقد انبهر العلامة الزمخشري وهو أحد أساطين البيان العربي من أسر وفخامة وحلاوة القرآن، بل لقد دُهِست قريش وهم رؤاد الفصاحة من هذا الكتاب الخالد وأعلن الجميع عجزهم عن معارضته ومجاراته، بل عجبت منه الجن وتواضع له الإنس وسجد في محراب فصاحته العقل مع العلم أن القرآن ميسّر في فهمه، سهل في معرفة مقاصده بخلاف كلام النخبة الذين وعروا مسلك الخطاب وصعبوا طريق الفهم على المتلقي، فصارت كتبهم جثثاً هادمة لا روح فيها ولا حياة، فصار يطبع

من كل كتاب لهم ألف نسخة وباعوا منها ثلاثين نسخة بعد التخفيض، كما قال أحد فلاسفة العصر: إن الفلاسفة تقول كلاماً غير مفهوم إلى قوم لا يفهمون شيئاً، وبعض العباقرة يحسن تسهيل العبارة وتيسير المعلومة ولكنه أحياناً يبتلى بلوثة فيصعب، ولهذا لما قال أبو الطيب المتبني يمدح عضد الدولة:

فَمَا يُسْمِي كَفْنَا خُسْرَ مُسَمٍ
وَلَا يُكْنِي كَفْنَا خُسْرَ كَانِي

فضحك منه الأديباء.

